

دور العرب في ازدهار الثقافة الأندلسية الإسلامية وأسبابه

The role of the Arabs in the prosperity of Islamic Andalusian culture and its causes

د. عبدالمجيد البغدادي*

**محمد نواز

ABSTRACT:

This article shows the Islam and its followers (Arabs) had created a civilization that played very important role on the world stage for more than a thousand years. One of the most important specific qualities of the Islamic civilization is that it is a well-balanced civilization that brought together science and faith, struck a balance between spirit and matter and did not separate this world from the Hereafter. The Islamic civilization in Spain encompasses many fields that left a profound imprint in the Iberian Peninsula and Europe. The cultural climate of Spain in the era of Muslim rule (711-1492) brought about a prospering of different aspects of science and culture. Numerous schools and libraries were established and books were procured due to which the majority of the people were literate. Literature and art flourished. Buildings were constructed and Islamic art with its specific qualities was cultivated. Because of that movement, Cordoba became the civilization capital of both Spain and the West in general. Many schools were established in it, such as medical and technical schools in addition to the general education and other vocational schools. Hospitals, chemical plants and observatories were also built.

Keywords: Arabs, Islamic civilization, Science and faith, Spain, Cordoba.

إن الأرض كانت تدعى "بالأندلس" في الدولة العربية، هي عرفت بإسم "أيبيريا" في أقدم العصور حين سكن فيها "الأيبريون" الذين كانوا من أقدم من أقام في هذه البلاد، وبعد ذلك سميت "بأسبانيا" أو "بأشبانية" وهذا الإسم قد أطلقه الرومان حين حكموها حول منتصف القرن الثاني قبل الميلاد بعد إقامة الإغريق والقرطاجنيين فيها كما يقول المقرئ في كتابه: "ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة وملكهم أشبان بن طيطش وإيأسمه سميت الأندلس "إشبانية"¹ ثم جاء الوندال في أوائل القرن الخامس الميلادي بعد الرومان وسموها بقندليشيا، Vandalisia، ثم نزل القوط بها وأجلوا الوندال منها وملكوها وظل ملكهم، حتى افتتح المسلمون شبه

*Assistant Professor, Department of Arabic AIOU, Islamabad.

Email: baghdadidgk@yahoo.com

**Ph.D Scholar, Allama Iqbal Open University, Islamabad.

الجزيرة في أوائل القرن الثامن الميلادي، وأطلقوا إسم "الأندلس" عليها، وبقي هذا الإسم إلى الآن بأدنى تغيير في اللفظ والمعنى، أما اللفظ فقد أصبح "أندالسيا" Andalusia، وأما المعنى فقد صار جنوب شبه الجزيرة فقط بعد أن كان أطلق على شبه الجزيرة جميعاً.² لكن وُجدت تعليقات أخرى لتسمية شبه الجزيرة بإسم الأندلس وهي كما كتب المقرئ في كتابه نفح الطيب: "أول من سكن بالأندلس على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلس معجمة الشين بهم سمي المكان، فعرّب فيما بعد بالسين، غير معجمة بالسين، ومنها رواية: "سميت بالأندلس ابن طوبال بن يافث بن نوح لأنه نزلها."³ والمنطقة التي تدعى الأندلس أو أندلوسيا اليوم هي منطقة واسعة تشمل جنوب أسبانيا.⁴

جغرافية الأندلس:

إنها كانت من أعظم البلاد الأوروبية ومن أجمل بقاع الأرض ذات طبيعة ساحرة جذابة إليها، وهي شبه الجزيرة التي تقع على الطرف الغربي من قارة أوروبا، طولها ألف ومائة ميل وعرضها نحو ستة مائة ميل تحيط بها المياه من ثلاثة جوانب: من الغرب بحر الظلمات ومن الشرق بحر الروم ومن الجنوب بحر الزقاق، أما من الشمال تتصل حدودها إلى جبال البرانس الفاصلة بينها وبين فرنسا.⁵

أما صورة الأندلس فإنها شكل مركز ذات ثلاثة أركان كالمثلث: ركنها الأول عند صنر قانس وثانيها في بلاد جليقية بمقابل الجزيرة القرطاجنة وثالثها بمدينة أربونة، ومدينة برزيل.⁶ ويقول الأمير شكيب أرسلان: "أما الأندلس في ذاتها فشكل يحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث."⁷

وهذا البلاد تقسم جغرافياً إلى قسمين: الأندلس العليا والأندلس السفلى، فالعليا هي شمالي الوادي الكبير والسفلى جنوبية. كانت الأندلس أيام العرب تنحصر في إشبيلية وقرطبة وجيان وغرناطة وملحقاًها. وهي تقسم اليوم إدارياً (أو الأقاليم التي تشملها) هي المرية وغرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية وقانس وأونبة.⁸

الثقافة في الأندلس:

كانت الأندلس قبل أن يفتح العرب خالية من العلم والثقافة ولم يكن بها علم ولاثقافة، "وأتى العرب حين فتحوا أسبانيا كان ظلام الجهل يطبق عليها ولم يكن بها علم ولا علماء ومحق مايقوله صاعد في كتابه طبقات الأمم أن هذا القطر لم يعرف في العصر القديم بالعلم ولا كان به شخص اشتهر بحبه للعلم وظل مغلقاً في وجه الحكمة إلى أن فتحه العرب."⁹

فلما جاء العرب إلى الأندلس وتوجهوا إلى الاهتمام بالعلوم والآداب والفنون، عرفت الأندلس الحضارة والثقافة

ومعنى ذلك أن الفتح العربي لم يكن لهذه البلاد احتلالاً عسكرياً فقط بل كان عمالاً وسبباً لظهور الثقافة والحضارة، ونتج عنه ثقافة جديدة بإسم الثقافة الأندلسية التي امتزجت بالإسلام والنصرانية واليهودية وغلب عليها أثر الإسلام والعرب، ثمّ قد راجت هذه الثقافة في جميع بلاد الأندلس¹⁰.

مرّت الثقافة الأندلسية بمراحل مختلفة، متبعة بالمراحل السياسية، لذلك إذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا الثقافة في عصر الولاة كمثابة خيوط الفجر الأولى التي تشير إلى الصبح الصادق الآتي، لأن كان هذا العصر عصر الفتوحات و عصر إقامة الدولة الإسلامية في البلاد كما قرأنا في الكتب التاريخية المتعددة كتاريخ أحمد مقصود هيكل وتاريخ شوقي وتاريخ محمد كرد علي وغيره إن موسى بن نصير فاتح الأندلس والغرب كان يرسل مع جيوشه الفقهاء والعلماء الذين يعلمون الناس بها وينشرون فيهم علوم القرآن والحديث، ويرغبونهم في تعلم اللغة العربية فأسسوا بعض المساجد بحيث المدارس، لكن هذه الفترة كانت مملوثة بالفتن والاضطرابات لذلك لم تتجاوز العلوم والثقافة من المساجد التي كانت قليلة حينذاك، ثم جاء عهد الأمويين فمشت الثقافة الأندلسية فيه خطوات إلى التقدم والازدهار حتى بلغت إلى أوج القوة في العهد الأموي وخاصة في أيام عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم كما يقول أحمد الإسكندري وأصحابه في تأليفه: "أخذت بلاد الأندلس تتأهب للنهوض في العلوم والفنون منذ ملك البلاد بنو أمية وعنى الخلفاء بنشر العلوم ونقلها"¹¹.

أسباب التقدم والازدهار في الثقافة الأندلسية الإسلامية:

1 منها مجيء كثير من المسلمين إلى الأندلس إما فراراً من الدولة العباسية أو إقاماً رغبة في استيطان الأندلس بكثرة خيراتها وحسنها، وكانوا جميعاً مثقفين وعارفين بالعلوم الإسلامية والعلوم اللغوية فقاموا بنشر العلوم والثقافة حتى ذاعت العلوم في الأندلس بمحا ولاتهم، ومن هؤلاء العلماء أبو الأشعث الكلبى المحدث الذي يروي عن أمه، وأخ عمر بن عبدالعزيز وعبد الملك بن مروان وغيرهم كثيرون من العلماء الكبار الذين يملؤون الأندلس أدباً ولغة.

2 وكان سبب آخر لذيوع الثقافة هو وفود العلماء الكبار من الشرق إلى الأندلس بعد الفتح وخاصة في العهد الأموي كزرياب الذي جاء في عهد عبدالرحمن الثاني، والذي قد ثقّف الأندلسيين وهذبهم وعلمهم طرق المآكل في الأوانية الزجاجية وارتداء الملابس حسب الفصول المختلفة، وخاصة روج بينهم الغناء والموسيقى. كذلك جاء أبو علي القالي في عهد عبدالرحمن الناصر وهو الذي أملى تلاميذه تأليفه الشهير "الأمالى" ونشر ما أفاء الله عليه من العلوم والفنون بين الأندلسيين¹².

3 والسبب الثالث هو رحلة كثير من الطلاب من الأندلس إلى الشرق و كانوا وقفوا أنفسهم للتعلم والتبحر فيه وقد ذهب بعض منهم إلى تعلم العلوم الدينية كالتفسير والحديث والقراءات وغيرها، وذهب بعضهم لتعلم اللغة كالنحو والصرف، ثم إذا رجعوا إلى بلادهم بعد أن يرسخوا في العلوم والفنون. قاموا لنشر العلوم والثقافة بين بني جنسهم، كأن الأندلسيين قد اعتادوا من اتخاذ هذه الرحلات بين مراكز العلوم في العالم الإسلامي عادة حسنة لتزود بالعلوم واكتساب المعرفة وكانت هذه الرحلات في طلب العلم من أقوى الأسباب التي أعانت على خلق البيئة الثقافية.¹³

من أمثلة هؤلاء الطلاب العظام كالغازي بن قيس، ويحيى بن يحيى الليثي تلميذي الإمام مالك، وأبي موسى الهواري، وعبد الملك بن حبيب وغيرهم من أساطين العلم والمعرفة. وكان أشهر منهم يحيى بن يحيى الليثي الذي تتلمذ للإمام مالك واستفاد منه وأخذ عنه مجموعة للأحاديث المشهورة بإسم "الموطأ" وسافر إلى مصر وأخذ بها من علمائها العظماء، ثم عاد إلى الأندلس ونشر ما أنعم الله عليه من العلم ونشر المذهب المالكي فيها بفضل الله ونصرته حتى أصبح المذهب المالكي مذهباً مسيطراً ومذهباً رسمياً في بلاد الأندلس.¹⁴

هكذا اقتفى أهل الأندلس آثار المشرقين في العلم والثقافة وأخذوا عن أئمتهم العلوم الدينية واللغوية والأدبية لذلك قد تشبه أدب الأندلس بالأدب المشرقي حيناً، لكن طبيعة البلاد وحياتها ومجتمعها قد جعلت له ملامح خاصة ميّزته من أدب المشاركة في حين آخر.

4 أما عامل رابع لذيوع العلوم ونشرها في الأندلس هو إنشاء المساجد وبخاصة إنشاء مسجد قرطبة الذي بمثابة الجامعة التي تلتقي فيها التعاليم الدينية من علوم القرآن والحديث والفقه، والتعاليم اللغوية من النحو والصرف والعروض وغير ذلك، يذكر الدكتور أحمد أمين في كتابه قائلاً: "لن ننسى أن من أهم عوامل دفع الثقافة الأندلسية في تلك الفترة ما كان من إنشاء مسجد قرطبة وغيره، فقد كانت المساجد في تلك الآونة بمثابة المدارس والجامعات، وقد كانت مسجد قرطبة بالذات هو النواة الحقيقية للجامعة الأندلسية التي أسست في تلك الفترة والتي ستتسع في العصور التالية حتى تكون في القرن العاشر أعظم جامعات أوروبا."¹⁵

ويؤكد الدكتور محمد رضوان الداية في كتابه قائلاً: "كانت المساجد هي دور العلم في الأندلس فإنما لم تنشأ فيها المدارس المستقلة إلا في زمن متأخر في عهد دولة بني نصر."¹⁶

5 أما وسيلة أخرى لذيوع العلم والثقافة في الأندلس كانت جمع الكتب العلمية والدينية وإقامة المكتبات في البلاد وقد كان لهذه الوسيلة دور هام في تنشيط الحركة العلمية والأدبية بالأندلس، وكان الأندلسيون قد أنشأوا في كل ناحية من نواحي البلاد مكتبات ظلّت ملجأ الثقافة وأتيت بالكتب من المشرق كثيراً في العهد الأموي وخاصة

في أيام الحكم الذي كان محبباً لجمع الكتب، و كان أشد حريصاً على جمع الكتب للمكتبة له و كان يدفع أحياناً ثمناً غالياً لحصول كتبه المقصودة. كما يذكر المقري واصفاً له: أمّا الحكم بن عبدالرحمن فقد ثبت انه لم يولع خليفة بالكتب كما أولع ولم يجمع أمير منها مثل الذي جمع ، و قد اشتهر بمكتبته الغنية التي بلغت أربع مائة ألف مجلد¹⁷. و قيل إن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب هي أربعة وأربعون ، في كل واحدة منها عشرون ورقة¹⁸.

هكذا اجتمعت بالأندلس خزائن كبيرة من الكتب، و غدت الأندلس سوقاً لها، و أصبح الاهتمام بجمع الكتب أمراً بارزاً حتى توجه الناس إلى جمعها و اقتنائها توجهاً كثيراً و امتلأت بيوت الأندلس من الكتب و المجلدات حتى لم يكدهم يخلو بيت منها¹⁹.

6 وهناك كانت وسيلة أخرى دور جمع الكتب لانتشار الثقافة هي التأليف و الترجمة ، كان الأندلسيون قد أقبلوا إليها كثيراً لإثراء تراثهم ، فألفوا الكتب الكثيرة و ترجموا منها²⁰.

و إن أمعنا النظر في سياسة الأندلس الإسلامية، و جدنا سبباً ذا أهمية عظيمة الذيوع العلم و الثقافة بها وهو أن الحكام و الأمراء كانوا يتولون على العلم و يراعونه أحسن رعاية لأنهم أنفسهم أصحاب العلم كما يبين الدكتور مصطفى في كتابه: "مجموع القول إن الحكام في الأندلس متحداً أو ممزقاً كانوا أصحاب علم و ثقافة و استنالة معرفة"²¹.

يلمح إلى ذلك الدكتور يوسف فرحات في تأليفه قائلاً: " أمّا الأدب فقد شهد أرق مراحل ازدهاره بعد ماتحوت بلاطات الأمراء إلى منتديات يقصدها الشعراء و الكتاب ليفيدوا من الأعطيات و قد قلّد الاستقراطيون الأمراء فحوّلوا قصورهم و منازلهم إلى مجالس ثقافية"²².

هكذا أصبح جميع أهل الأندلس مشغوفين و محبين بالعلوم و امتلأت الأندلس من أقسام العلوم و الفنون كلها حتى أخذت الأنظار ترتفع إليها من أنحاء العالم ، و طفق الناس يسافرون إليها لطلب العلم ، كما ذكر محمد كرد علي في كتابه يقول: " و لذلك كانت الأندلس في عهد العربي كعبة العلم يحج إليها أذكياء الطلاب من فرنسا و إيطاليا و غيرها كما يحج اليوم طلاب العلم إلى كليات فرنسا و ألمانيا و البلجيك و سويسرا و هولاندة"²³

فقد ازدهر كل فرع من فروع العلم في ظل الإسلام في الأندلس، أمّا العلوم اللغوية كالنحو و الصرف و العروض و البلاغة ، و العلوم الأدبية كالنثر و الشعر، و العلوم العقلية كعلم الأصول و الفلسفة كانت جميعها سواسية عندهم في الاعتناء بها يقول المقري: " و كل العلوم لها عندهم حظ و اعتناء إلا الفلسفة و التنجيم فإنّ لهما حظاً عظيماً عند خواصهم "²⁴.

وامتاز الأندلسيون بالسرعة الغربية في تلقف العلوم ، وكان من صفاتهم أنهم لا يتعلمون لحصول الوظيفة بل يقرأون ويتعلمون بميل ورغبة شديدة وينفقون كل ما عندهم من مال حتى يتعلموا ، ومتى عُرف أحد منهم بالعلم أصبح في مقام التكريم والإجلال في المجتمع ويشير إليه الناس بالعلامة.²⁵

فهذه الحالة الثقافية ظلت في الأندلس في الحكم الإسلامي الذي باد بعد أن يقوم بها ثمانية قرون وترك خلفه آثاراً أدبية وفنية يعترفها المستشرقون والمسيحيون إلى الآن بعدما أرادوا أن يحووا إسم المسلمين من أرض الأندلس، يكتب فلب كي حتى في تاريخه الشهير معترفاً لمحاولات المسلمين الأدبية والثقافية:

"Muslim Spain wrote one of the brightest chapters in the intellectual history of medieval Europe. Between the Middle of the eight and beginning of the thirteenth centuries, as we have noted before, the Arabic speaking peoples were the main bearers of the torch of culture and civilization throughout the world"²⁶

وهو يضيف إلى ذلك أن الأندلس كان لها حظٌ عظيم في إثراء اللغة العربية وفي إثراء العلوم والفنون. ويستدل الدكتور محمد كرد علي على ثقافة الأندلسيين في الدولة الإسلامية قول أحد مؤرخي الأفرنج: "إن سكان أسبانيا الإسلامية إلا قليلاً كانوا يقرأون ويكتبون على حين كان أهل الطبقة العليا في أوربا المسيحية أميين لا يقرأون ماعداً أفراد قلائل من الشمامسة جعلوا الكتابة من شأنهم".²⁷

الخلاصة:

تثبتت هذه الدلائل المذكورة أن الأندلس له حظٌ وافر في الثقافة والحضارة وقد سبقت البلاد الأوربية الأخرى في الدولة الإسلامية. لذلك فشت الثقافة فشعاً واسعاً في عهد الإسلام في الأندلس، فقد شهدت نفسها أوج ازدهارها لما شارك الخلفاء والأمراء في ارتقاءها، وعزّوها وعقدوا لها في قصورهم مجالس عديدة كعبدالرحمن الأول والثاني والثالث والحكم والمعتصم وغيرهم. وكان الخلفاء الذين تولّوا الإشراف على الثقافة والأدب، وحاولوا لإزدهارهما.

الهوامش والمصادر

¹ المقري، أحمد بن محمد، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر 1949، ج 1، ص 131

² هيكل، أحمد مقصود، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، الطبعة العاشرة، دار المعارف، القاهرة، 1986، ص 13، ونفع

الطيب، ج 1، ص 141 130

³ نفع الطيب، ج 1، ص 130

- ⁴ الأدب الأندلسي، ص 15
- ⁵ شكيب أرسلان، الأمير، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الجزء الأول، المطبعة الرحمانية، مصر، 1936، ص 70
- ⁶ نفح الطيب، ج 1، ص 130
- ⁷ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الجزء الأول، ص 70
- ⁸ الأمين الريجاني، المغرب الأقصى، دار المعارف، مصر، 1952، ص 439
- ⁹ دكتور شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، دار المعارف، مصر، ص 60
- ¹⁰ صاعد الأندلسي، طبقات الأئمة، تحقيق: د. حسين مؤنس، مكتبة دار المعارف، مصر، 1993، ص 97
- ¹¹ أحمد الإسكندري وأصحابه، المفضل في تاريخ الأدب العربي، دار إحياء العلوم، بيروت، ص 90
- ¹² د. سعد إسماعيل الشلبي، الأصول الفنية للشعر الأندلسي، دار نهضة مصر، القاهرة، 1992، ص 7978
- ¹³ جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص 55
- ¹⁴ أحمد أمين، ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962، ج 3، ص 23
- ¹⁵ المرجع السابق ص 79
- ¹⁶ الدكتور محمد رضوان، النقد الأدبي في الأندلس، دار الأنوار، بيروت، 1968، ص 49
- ¹⁷ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 184
- ¹⁸ طبقات الأئمة، ص 66
- ¹⁹ إبراهيم بن حسن، الأدب العربي، وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية، 1997، ص 20
- ²⁰ ظهر الإسلام، ج 3، ص 2321
- ²¹ الدكتور مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ص 104
- ²² الدكتور يوسف فرحات، ديوان ابن زيدون، دار الكتاب العربي، لبنان، 1991، ص 10
- ²³ محمد كرد علي، في غابر الأندلس وحاضرها، المكتبة الأهلية، مصر، 1923، ص 52
- ²⁴ النفح الطيب، ج 1، ص 205
- ²⁵ المرجع السابق، ص 210
- ²⁶ Phillip K.Hitty, History of the Arabs, 10 Edition, MacMillan Press, London, P.557
- ²⁷ غابر الأندلس وحاضرها، ص 87



This work is licensed under a [Creative Commons Attribution 4.0 International License](https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).